

الفصل الثاني عشر
العلاقة بين القبائل العربية والماليك
في مصر والسودان

سنة ٦٥١هـ - ٩٢٢هـ / ١٢٥٢ - ١٥١٧م

كانت أكبر ضربة تلقاها العرب في مصر هي عندما أمر المعتصم بوقف أعطياتهم واستبدالهم في العسكر بالجنود الأتراك . ووجد العرب أنفسهم مجردين من أي شئ يمكن أن يأتي لهم بدخل . وكانت أرض مصر عندما فتحها عمرو بن العاص خاضعة لشروط الأمان الذي أعطاه عمرو نيابة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض) لأهل مصر . وهذه الشروط التي تقيدها المسلمون هي كما ذكرها المقرئ في قوله : " قال ابن الحكم : كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يسأله أرضا يستزق فيها عند قرية عقبة . فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع . فقال له عقبة .: " ليس لنا ذلك ، إن في عهدهم شروطا ستة هي :- ^١

- (١) ألا يؤخذ من أرضهم شئ
- (٢) ولا من نسائهم .
- (٣) ولا من أولادهم .
- (٤) ولا يزداد عليهم (في الجزية) .
- (٥) ولا يكلفوا ما لا طاقة لهم به .

^١ المقرئ : ج أول ص ٢٠٨ - طبع بيروت .

(٦) ويدفع عنهم (أي إذا جاء عدو يغزوهم فعلى المسلمين

أن يدافعوا عنهم .)

وقد تمسك الخلفاء المتعاقبون بهذه الشروط ، ولم يمنح أحد من العرب أراضي في مصر ، ولم تنزع أرض من أقباط مصر ، ولذلك فقد أصبح موقف العرب بعد وقف الأعطيات ضعيفا للغاية ، ولم يجدوا لهم بابا للرزق . وكانت هذه بالنسبة لهم كارثة يصعب احتمالها .

وازداد موقف العرب سوءا حين حكم الأيوبيون مصر ، وأكثروا من الممالك الذين جلبوهم من النواحي التركية ، وحين أخذوا يقسمون مصر إلى إقطاعات لأمرائهم من الممالك ، وبذلك أجموا الضغائن العربية على هؤلاء .^٢ ثم ما لبثت الأمور أن ازدادت سوءا حين استولى الممالك على حكم مصر ، وحين أصبحوا أصحاب البلاد ، بينما كان العرب هم الذين فتحوا مصر ، ونشروا فيها الإسلام رغم أنهم كانوا يعيشون خارج المدن والقرى طيلة القرن الهجري الأول ، ولم يختلطوا بالمصريين إلا بعد ذلك .

ومما لا ريب فيه أن العرب كانوا أحسن من أعطى أمانا وعهدا للدول التي تغلبوا عليها ، وقد احتفظوا بتعهداتهم هذه رغم مرور عشرات السنين على قطع الوعد ، ولا نجدهم يتخلون عن تعهدهم رغم مرور السنين الطويلة ، ورغم تغير الأحوال . وكانوا بحق مثالا أعلى لا يوجد له نظير في الأمم الأخرى حتى ولا في العصور الأخيرة التي يتحدث فيها الناس عن حقوق الإنسان ، وفي نفس الوقت يهضمون كل الحقوق طالما أن القوة في

^٢ قام توران شاه آخر صلاح الدين باعطاء اقطاعات لمملكه بعد أن نزعها من أبناء كثر الدولة ،

وقد كانت أعطيت لهم من قبل الخلافة الفاطمية .

أيديهم . كذلك نجد أن هذه الشروط التي وضعت حفظت لسكان مصر حقهم في أرواحهم وممتلكاتهم ولم يطلب منهم أن يدفعوا سوى دينارين عن كل ذكر بالغ . أما إذا كان الذمي شيخا هرما فإنه يعفى من هذه الجزية كما أمر سيدنا عمر بن الخطاب (ض) ، بل ويدفع له من بيت المال ما يقيم أوده .

وتغير الموقف في الدولة العباسية بعد ذلك ، وأصبح العرب في موقف ضعيف يتسم بالمهانة والوهن ، ولهذا وصفه يوسف فضل بالكلمات التالية :-

" بعد نهاية الأيوبيين في سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) استولى المماليك على مصر ، وظهرت الغطوسة المملوكية التي أهاجت القبائل العربية وأثارتهم في صعيد مصر ، وشعرت هذه القبائل بأن الحكم في تلك البلاد حكم عسكري أجنبي لا يطاق . وكان المماليك لا يحسون بأي عطف نحو الرعية العربية ، كما أنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة العربية ، بل كانوا يحتقرون البدو وسكان الريف . ولم يكن رفض المماليك للعرب يعزى إلى اضطهاد عرقي ، ولكنه كان يعود إلى عدم قبول الحضريين لأهل البادية " .^٣

ومنذ أن دخل أحمد بن طولون مصر واليا عليها أصبح شغل ولاة مصر الشاغل تأديب القبائل العربية القاطنة في مصر ، كما أصبحت مهمة هذه القبائل الرئيسية الثورة على الأوضاع السياسية السائدة ، وسيطرة المماليك الأتراك الذين كان يجلبهم ولاة مصر منذ أن تولى الخلافة العباسية المعتصم بالله ، ومنذ أن منع إعطيات العرب في كافة أنحاء الخلافة العباسية بما

^٣ الدكتور يوسف فضل حسن : العرب والسودان : ص ١٠٠ .

في ذلك مصر . لهذا فانه على مدى العصور التالية سواء أكان ذلك في العهد الفاطمي أم الأيوبي ، كان العرب مستهدفين من الدولة ، وكانوا يمثلون الفئات المضطهدة غير الراضية بما هي فيه من حال . وكان جند المماليك يمثلون العصا المرفوعة لتأديب الثوار العرب . وقد مر بنا كيف أن بدر الجمالي في العهد الفاطمي ضرب إمارة بني ربيعة ومن ساندتها من عرب في صعيد مصر ، كما رأينا كيف أن عصر صلاح الدين الأيوبي لم يكن بأكثر اهتماما من سابقه بسائر العرب في الصعيد .

فلما جاء دور المماليك ، واستلموا الحكم في مصر ازدادت شقة الخلاف بين الجانبين - فالمماليك لم ينسوا أن هؤلاء العرب مصدر ثورات وقلق لهم ، والعرب ما زالوا يذكرون أن المماليك ما هم الا غاصبين لحقوقهم في مصر التي فتحوها ونشروا فيها الإسلام . وهكذا فإن الصدع بين المعسكرين كان كبيرا ، وجراح الماضي لم تندمل بعد .

وفي مطلع عصر المماليك (سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م) ظهرت بوادر هذا التيار ، إذ قام زعيم الجعافرة الشريف حصن الدين ثعلب ابن الأمير الكبير نجم الدين علي بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب مناهضا للمماليك وقال " نحن أصحاب البلاد " ومنع الأجناد من تناول الخراج ، وصرح هو وأصحابه " بأننا أحق من المماليك " .

" واجتمع العرب وهم يومئذ في كثرة من المال والخييل والرجال ، إلى الأمير حصن الدين ثعلب ، وهو بناحية دهبوط صربان ، وأتوا من أقصى الصعيد وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم ، وجاءوا إليه كلهم ، فبلغ عدد الفرسان اثني عشر ألف فارس ، وتجاوزت عدة الرجال الإحصاء

لكثرتهم . فجهز إليهم الملك المعز أيك الأمير فارس الدين أقطاي الحمدار ،
والأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس ، فساروا إلى
ناحية ذروة ... فاقتل الفريقان ، وانهزم حصن الدين ، واتجه المماليك إلى
عرب الغربية والمنوفية من قبيلتي سنابس ولواتة ، وقد تجمعوا بناحية سحا
وسنهور ، فأوقعوا بهم ، وسبوا حريمهم ، وقتلوا الرجال . وما زال الترك
بحصن الدين حتى قبضوا عليه بجيلة الخدع بها .^٤

وهكذا فقد كاد حصن الدين ثعلب بجموعه التي التفت حوله أن
يقيم دولة عربية جعفرية لا في صعيد مصر وحده ، ولكن في مناطق أخرى
امتدت لتشمل البحيرة والجيزة والفيوم . ولكن لما كان جيش المماليك عبارة
عن جيش محترف نظامي حسن التدريب والعتاد والقيادة ، فقد أخفقت هذه
الحركة التحررية التي نلمسها في الكلمات التي صدرت عن حصن الدين
نفسه .

ولم تكن هذه هي الحركة التحررية الوحيدة التي قام بها العرب لأنه
تلت تلك الحركة محاولات أخرى . وما إن فرغ المماليك من حملتهم ضد
الشريف حصن الدين الجعفري حتى اجتمعت بعض القبائل العربية في سنة
٦٨٩هـ / ١٢٩٠م في مواطنها بصعيد مصر ، وقامت بحركة عصيان
للدولة . وقد واجه المماليك هذه الحركة بشيء كثير من الشدة والصرامة ،
وأعدوا لها جيشا قويا ، كما استفتوا في الأمر دار الإفتاء التي أعلنت فتواها
بوجوب القضاء على أولئك العصاة ، وأخفى المماليك حقيقة دوافع إعداد
الجيش المزمع إرساله لمحاربة القبائل العربية ، وقيل انه كان يعد ليرسل إلى

^٤ عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب .. صفحة ١٢٣ نقلا عن المقرئزي : السلوك .

سوريا لمقاتلة المغول ، وبذلك ضلّوا العرب وعيونهم التي كانت ترقب الموقف .^٥ وأخذ العرب على حين غرة ، ولم يعدوا العدو لملاقاة ذلك الجيش المنظم ، ولم يشعروا الا والجيش قد أحاط بهم من كل جانب ، ولم يترك لهم منفذا يفرون منه ، أو ثغرة ينفذون منها .

وكان ذلك (في جمادى الثاني سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٠م ، ووقع الرعب في قلوب العربان حين أطبق عليهم الأمراء ، وأخذوهم من كل جهة فروا إليها ، وأخرجوهم من مخابثهم حتى قتلوا من بجانب النيل إلى قوص ، وجافت الأرض بالقتلى ، واختبأ كثير منهم بمغائر الجبال ، فأوقدت عليهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم ، وأسروا منهم نحو ألف وستمئة لهم فلاحات وزروع ، وحصل من أموالهم شئ عظيم ، نحو ثمانين ألف رأس ما بين ضأن وماعز ، وكذلك أربعة آلاف فرس ، واثنين وثلاثين ألف جمل ، وثمانية آلاف رأس من البقر غير ما أرصد في المعاصر من السلاح نحو مائتي وستين حملا ما بين سيوف ورماح ، ومن الأموال على بغال محملة مائتي وثمانين بغلا ، وصار لكثرة ما حصل للأجناد والغلمان والفقراء الذين اتبعوا العسكر يباع الكبش السمين بثلاثة دراهم إلى درهمنين ، والماعز بدرهم الرأس ، والجزء الصوف بنصف درهم ، والكساء بخمسة دراهم ، ورطل السمن بربع درهم . ولم يوجد من يشتري الغلال من كثرتها ، وان البلاد طرقت وأهلها آمنون ، وقد كسروا الخراج^٦ وانتهت المعارك بعد أن "

^٥ يوسف فضل : العرب والسودان

^٦ المقرئزي : السلوك - جزء أول - فصل أول - ص ٩٢١ .

خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحدا ، وينزل القرية فلا يرى الا النساء والصبيان " .^٧

وهكذا عاد الجيش المملوكي إلى القاهرة بكثير من الغنائم والأسلاب . ويضيف المؤرخ بيبرس بأن الجيش استولى على خمسة عشر ألف جواد ، وعشرين ألف جمل ، وعشرة آلاف رأس من الضأن غير الماشية .

كان لهذه الحملة العسكرية أثر كبير على تعداد السكان العرب في المنطقة ، كما أنها كانت مدمرة للحالة الاقتصادية والزراعية والاجتماعية ، وأحس السلطان المملوكي بالدمار الذي حدث فقرر الإفراج عن الأسورين ، وإعادةتهم إلى موطنهم لحفظ البلاد التي لا بد وان قل ربعها وإيرادات الدولة منها ، وقلت محاصيل الزراعة والأنعام .^٨

جهدت الثورات العربية بعد ذلك لفترة من الزمن وكأما كانت القبائل العربية تلتقط أنفاسها لتعاود الكرة مرة أخرى ، وتحاول التحرر من القبضة المملوكية في صعيد مصر وغيرها من أريافها . ويذكر الدكتور عابدين أنه " توالى حركات المقاومة بعد هزيمة حصن الدين ، وكان أغلبها يتركز في منطقة أسيوط ومنفلوط " . وكانت بهما جماعات من جهينة كما كانت هناك جماعات أخرى منها في صحراء عيذاب . ويرجح أنه وان كان المؤرخون العرب لم يذكروا اسم قبيلة جهينة وبلي^٩ بالاسم كمنائين نشطين

^٧ المقرئزي : البيان والاعراب - تعليق الدكتور عبد المجيد عابدين - ص ١٢٩ .

^٨ أبو المحاسن : نقلا عن عابدين في البيان - ص ١٢٩ .

^٩ يلاحظ كثرة عدد الابل والضأن والخيول التي استولى عليها المماليك مما يوحي بأنهم استولوا عليها من العربان الضاربين أيضا في أرض البجة حيث اندمجت قبائل بلي وجهينة وربيعة ومضر والكواهلة وغيرهم فيها . كما أن الحديث عن المغاير التي في الجبال قد لا تكون في الصعيد فقط وأرض النوبة ، بل ربما امتدت الى جبال البحر الأحمر أيضا . وهذا يظهر أن القبائل العربية في كل مكان قد تارت

للكم المملوكي الا أن وجودهم في أماكن الثورات يرجح اشتراكهم في كل العمليات التحررية . وهذه الفترة هي التي أطلق فيها المؤرخون لفظ العربان على سائر القبائل العربية كما أشار بذلك يوسف فضل^{١٠} فقد استوى الجميع في نظرهم ولم يفرقوا بين هذه القبيلة وتلك . وفي هذه الفترة أيضا بدأت العروبة تفقد رونقها وهبتها التي عرفت بها في التاريخ ، وأضحى العرب من بين الرعية التي ليس لديها ما يشجع السلطان المملوكي على الاهتمام بالنهوض بها وتقديمها . لقد كانوا موجودين في صعيد مصر وفي صحراء عيذاب وأراضي النوبة كأمر واقع ليس أكثر من ذلك .

عمد المماليك أيضا إلى سياسة فرض ضرائب باهظة على هؤلاء العربان ، وفي الواقع فانه منذ أن كان ابن المدبر مسئولاً عن ديوان الخراج في مصر فانه كان يضع سياسات عجيبة في سبيل الحصول على إيرادات من العرب خاصة إذا كانوا يحكم رعويتهم بعيدين عن متناول جباة الحكومة ، ولكن ابن المدبر استحدث ضرائب جديدة كضرائب الأمطار والأسمك وغيرها .^{١١} وكانت هذه تقع على كاهل هؤلاء الرعاة والصيادين ومن كان مثلهم بعيداً عن أنشطة الإنتاج كالتعدين والزراعة وغيرها . وكان العربي مهما نأى فان جباة الضرائب يسعون وراءه لتجريدته من القليل دون أن يجد من وراء ذلك ما يفيد من الدولة . وكان أكثر القوائم يجمع الضرائب

على المماليك ، وأنهم في نهاية الأمر قد فقدوا كثيراً من الرجال وأعداداً عظيمة من أنعامهم وسلاحهم وأموالهم وغلاهم .

^{١٠} يؤيد الدكتور عبد المجيد هذا أيضا .

^{١١} المقرئبي : ص ١٠٣ (بيروت) . كان ابن المدبر مسئولاً عن خراج مصر وترجع مسئوليته للخليفة العباسي في العراق مباشرة ، وذلك قبيل أن يتولى ابن طولون كل الأمور بما فيها الخراج .

قدرة على ذلك أحمد بن مدبر . ويتحدث المقرئزي عن أحمد بن محمد بن مدبر والي الصلات في مصر فيقول :

" وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ، فانه كان من دهاة الناس ، وشياطين الكتاب ، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض فأحاط بالنظرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم مالا سماه المراعي ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصيد .^{١٢}

ثم يمضي فيقول " وأما المراعي وهو الكلاء المطلق المباح الذي أنبته الله تعالى لرعى دواب بني آدم ، فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر لما ولي الخراج ، وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعي أو يشتروها الا من جهته . وأدركنا المراعي ببلاد الصعيد مما يضاف إلى الإقطاعات ، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه في أرض بلده الكتيح في كل سنة مالا عن كل رأس فيجى من صاحب الماشية بعدد أنعامه . فلما اختل أمر الصعيد في الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة تلاشى الأمر في ذلك . " ^{١٣}

وهكذا نجد أن التعسف في فرض الضرائب قد استمر من القرن الثالث الهجري حتى التاسع الهجري حين وصلت الأمور إلى أسوأ درك وعم الخراب الديار .

^{١٢} المقرئزي - الخطط - ج أول ص ١٠٣ طبع بيروت

^{١٣} المقرئزي - الخطط - ج أول ص ١٠٧ طبع بيروت .

بانتهاء هذه الثورة الأخيرة وإخمادها ، أطلت أحداث أخرى بعدها
بقليل ، فقد ظهرت في أرض الصعيد قبيلة العركيين المنحدرة من جهينة .
وكان أن شاركتها في المنطقة قبيلة بني هلال . وحدث خلاف بين القبيلتين
أدى إلى نشوب قتال بينهما بين سنة ٧٤٩ - ٧٥٤هـ / ١٣٤٨ -
١٣٥٣ م . وتعاطف المماليك مع بني هلال ، وقاتلوا العركيين معهم
وانتصروا عليهم . ولكن قتل من أمراء المماليك وجنودهم عدد كبير مما
أجج الحزازات بينهم وبين العركيين . ورجع الجيش المملوكي إلى القاهرة
بخسائر في الأرواح مما جعل المماليك بعدها يعملون على الأخذ بالثأر من
العرب . كذلك فإن العركيين انتهزوا فرصة خلو الميدان من جيش المماليك
فالتفوا حول زعيمهم محمد بن واصل العركي ، وكان هذا رجلا فارح
الطول حتى انحنت قامته فلقب لذلك بالأحذب . وقاد الأحذب رجاله من
العركيين وأنزل بني هلال ضربة قوية مما اضطر بعضهم إلى الفرار من أمام
العركيين ، ولعلمهم كما ذكر الدكتور يوسف المنحدروا من منازلهم بصعيد
مصر إلى الأراضي السودانية . ووالى أنصار الأحذب هجماتهم على ديار بني
هلال ، وأخذوا كثيرا من الغنائم والأموال غير عابئين بما سيقوم به المماليك
من انتقام . وبقيت بعض بطون الهلالية في صعيد مصر الأعلى ومن هذه
البطون بنو رفاعة .^{١٤}

ازداد نفوذ الأحذب في المنطقة لغياب السلطة المملوكية ، وكثر
أتباعه ، وتوافدت عليه جموع غفيرة من العرب . وكان كريما سمح العطاء لا
يتوانى عن تقديم العون لمن يلجأ إليه . والتف حوله الناس وأطاعوه حتى
زادت مهابته في عيون عمال الحكومة. ولم يكن جباة المماليك للضرائب

^{١٤} المقريزي : البيان والاعراب ص ٢٨ لعبد المجيد عابدين

بقادرين على أن يجمعوا أموال الدولة من الناس دون أن يأذن لهم بذلك وهكذا أصبح دولة داخل الدولة . ويضيف الدكتور يوسف على هذا القول المأخوذ منه انه ظهر زعماء آخرون مثل السوايدى فى منطقة البهنا وقد حذوا الأحدث فى فرض نفوذه على أواسط مصر .

وشعر المالك بخطورة الأحدث . وقرروا العمل على إضعاف قوته قبل أن يستفحل الأمر .

" وبعد شهر من المشاورات والاستعدادات أرسل الممالك جيشا كبيرا تحت قيادة سيف الدين شيخو عبر دروب مختلفة نحو مصر العليا وذلك فى ذى القعدة سنة ٧٢٤ هـ / ديسمبر ١٣٢٣ م . وقبل أن توجه الحملة إلى هدفها سمع العرب بالجيش المملوكى وبما يهدف إليه . فعمهم الخوف ورأوا أن يتخذوا إجراءات احتياطية . فرأى بعضهم أن يهاجر إلى النوبة بعائلاتهم . ولجأ آخرون إلى أماكن مختلفة يختبئون بها . بينما حاولت قلة منهم الذهاب إلى الحج . ولكن لسوء حظهم عثر عليهم أعداؤهم ، فحملوهم إلى القاهرة حيث قتلوا عن آخرهم . وقد قام الجنود الممالك بحملة منتظمة منذ خروجهم من الجيزة للبحث عن الثوار ، وتمكنوا من القبض على كل من كان متهما ، كما قاموا بقتل الكثيرين ، وصادروا كافة الجياد التى عشروا عليها وكذلك الأسلحة ."^{١٥} واستمرت حركة الاحدب المناهضة للممالك فترة تزيد عن الخمس سنوات بين سنة ١٧٤٩ الى سنة ٧٥٤ هـ . وقد انضم إليه فى هذه الأثناء جماعات من القبائل العربية التى كانت تسكن فى منفلوط والمراغة ، كما انضم إليه بنو كلب وبنو جهينة بالإضافة إلى عشيرته من العركيين . وأصبح حلفا عربيا متضامنا بلغ تعداد فرسانه ما يزيد عن العشرة

^{١٥} يوسف فضل مترجم من كتابه العرب والسودان ص ١٠٤

آلاف فارس ، كما كان معه من المشاة ما يفوق هذا العدد . وأخذت قوته في الازدياد حتى بلغ به أن " نادى بالسلطة لنفسه ، وجلس في جتر ، وجعل خلفه المسند ، وأجلس العرب حوله ، ومد السماط بين يديه ، وأنفذ أمره في الفلاحين " .^{١٦} فلما استفحل أمره عقد أمراء المماليك المشورة في عام ٧٥٤هـ في أمر عرب الصعيد ، وقرروا " تجريد العسكر لهم . فحشد محمد ابن واصل الأحذب شيخ عرك جموعه وصمم على لقاء الأمراء ، وحلف أصحابه على ذلك ... وجمع مواشي أصحابه كلهم وأمواهم وغلالهم وحرثهم وأولادهم . وأقام ينتظر قدوم العسكر " .

وكان المماليك قد عقدوا العزم على إنهاء أمر العرب سواء من كان ضدهم أو كان حليفا لهم . ولذلك فقد دبروا المكيدة لخلقائهم بني هلال بالمثل ودعوهم للانضمام إليهم لتأديب أعدائهم العركيين . وفرح بنو هلال بتلك الفرصة التي سنحت لهم للتخلص من العركيين ، (فأتخذوا بذلك وفرحوا به وركبوا بأسلحتهم ، وقدموا في أربعمائة فارس ، فما هو الا أن وصلوا إلى الأمير شيخو " قائد المماليك " حتى أمر بأسلحتهم وحيولهم ، فأخذت بأسرها ، ووضع فيهم السيف ، فأفانهم جميعا) .^{١٧}

أما هذه الخدعة فهي إن دلت على شئ فإنما تدل على سوء نية المماليك وعزمهم على التخلص من العرب كافة من كان منهم حليفا أو نائرا . وقد أكد هذا ما قاموا به فيما بعد .

^{١٦} عابدين : البيان - " الجتر مفرد جتور من شعار السلطنة وهو مظلة في قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من قضة مطلية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان في العيدين ، وهي من بقايا الدولة الفاطمية " .

^{١٧} عبد المجيد عابدين - القريري : السلوك : انظر البيان ص ٣٠ / السلوك ٩١١

وبينما كان جيش المماليك النظامي يسير إلى ملاقاته الأحدب كان هذا قد تراجع إلى أسوان حيث كانت قاعدته الأساسية ، وهو في جموعه تلك التي أقسمت على الوقوف معه ضد المماليك . " ولكن عندما وصل جيش المماليك الرئيسي وأصبح على مرأى من رجال الأحدب ، فر كل المقاتلين العرب من وجه أعدائهم ، وتشتوا في البلاد خوفا من الجيش تاركين وراءهم ذراريهم وممتلكاتهم . وتعقب المماليك هؤلاء الفارين ، وأعملوا فيهم السيف دون تمييز " .^{١٨} وطاردوهم في كل مكان حتى بلغ الفارون ما وراء الحدود السودانية في البراري ، وهم لا يلوون على شئ ، واستمرت المطاردة لمدة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج ، ثم رجع الأمراء والسلطان إلى الديار المصرية .^{١٩}

ولا تعرف بالضبط أراضي الزنج التي وصل إليها المماليك ، فهي ليست بلاد الصومال وليست أعالي النيل لأن هذه المسافات أبعد من أن تقطعها وسائل النقل الحيوانية في ذلك العدد من الأيام ، وربما لم يكن ابن اياس دقيقا في عدد أيامه إذ من المؤكد أنهم قد دخلوا الأراضي السودانية ورجعوا منها .

ويضيف الدكتور يوسف بأن الجيش المملوكي لم يعد إلى عاصمة مصر الا بعد أن قضى تماما على العرب ولم يبق أحد من الأعراب في البلاد . وربما اعتمد في حديثه هذا على ما جاء في حديث المقريري الذي لخص هذه الأحداث بقوله انه " لم يبق بدوي بصعيد مصر " .^{٢٠} ويلاحظ أن المقريري

^{١٨} يوسف فضل -

^{١٩} ابن اياس ١ / ٢٠٠ - عابدين البيان ١٣١ .

^{٢٠} المقريري : السلوك ٢-٣ / ٩١٣ : عابدين : البيان ص ١٣١

ذكر " البدو " بلفظها في حديثه على أنهم هم الذين أخرجوا من الصعيد ، أما العرب المستقرون في الزراعة والمدن فلا يبدو أنه نالهم كثير من الضرر . حين يذهب الجيش لحرب كهذه ويجد أن الشائرين قد جمعوا كل ما لديهم من حطام الدنيا في مكان واحد فانه سيعمل على أخذ هذا المال والمتاع وكل ما يعثر عليه ، ووصف هذه الحالة يوسف فضل أيضا بقوله " وكما هو متوقع فقد عاد الممالك من حربهم بكميات ضخمة من الغنائم والأسلاب . أما الأحدب فقد فر من وجه أعدائه واختفى عنهم حتى صدر عفو عنه في ربيع الأول سنة ٧٥٦هـ (يناير ١٣٥٥ م) أي بعد عامين من انتهاء المعارك . ولم يحصل على هذا العفو الا بعد أن قطع على نفسه عهدا ، وربما أيضا على مناصريه بأنه لن يركب فرسا ، ولن يحمل سلاحا بعد الآن ، وأنه سوف يفلح الأرض . "

واضطر الأحدب تحت وطأة القوة المملوكية أن يترك الملك لهم ومن معه من عرب ، وأن يفلح الأرض بعد أن واجهته جموع لا قبل له بها . وحذت حدوه بقايا القبائل العربية التي سبق لها أن آزرته ، وكان ذلك في سنة ٧٥٦هـ الموافق ١٣٥٥ م .

ظلت مع ذلك بقية من هذا الحلف العركي في صعيد مصر الأعلى بعد كل هذه الأحداث وعرفوا باسم عرب ابن الأحدب . وقد ظهروا بعد ذلك في أحداث وقعت مع هوارة في سنة ٧٩١ مما يعني أن بعض العركيين من أنصار الأحدب ظلوا في مصر وأنه ربما كانت جماعات كبيرة منهم هي التي رحلت إلى الأراضي السودانية بعد هذه المعارك التي خاضوها فرارا من الممالك .^{٢١}

^{٢١} عابدين : البيان والاعراب للمقريزي .

بعد هذه الحقبة ٦٥١-٧٥٦هـ (١٢٥٣-١٣٥٥ م) استمرت هجرات العرب الاضطرابية من مصر إلى الأراضي السودانية ، وكان على رأس النازحين عرب الحلف العركي وفيهم أيضا بنو هلال ، وتغلب عليهم جموع من جهينة التي كانت تضم الكثيرين من بطونها من أمثال بني عرك . ولم يتوقف ضغط المماليك واضطهادهم للعرب بعد هذه الحوادث إذ أخذوا يمشطون صعيد مصر الأعلى وكل بقعة لجأ إليها هؤلاء الأعراب . وابتكروا طريقة للتعرف عليهم بها ، فكانوا يطلبون من العربي أن ينطق كلمة دقيق ، فإن قلب القاف همزة كما يفعل أبناء القاهرة فقال " دئبي " خلوا سبيله . وإن غلبت عليه البداوة فنطق القاف كما ينطقها العربي القح فإنه سيطرد من مصر إلى الأراضي السودانية .^{٢٢}

يلاحظ أن هذه القبائل العربية كانت تفر نحو صحراء البجة في شمال شرقي السودان مبتعدة بذلك بقدر الإمكان عن متناول المماليك . فكانوا يلوذون بالصحراء ، وان كان بعضهم قد لجأ إلى بلاد النوبة ولكنهم عموما كانوا يرون أن بلاد النوبة ليست بمنأى عن أيدي المماليك القوية . وكم من مرة غزا ولاية مصر في مختلف العصور تلك المملكة بحثا عن نائل أو منشق أو ملك لم يدعن لسياستهم . لهذا فقد عبرت الأكثرية إلى مناطق قبائل الأمازار والبشاريين الحالية من قبائل البجة ، وذهبت قلة قليلة إلى أراضي النوبة على النيل ممن لم يجدوا الفرصة الكافية للوصول إلى صحراء البجة .

وطوال هذه الفترة ٦٥١-٧٥٦هـ التي كان يضغط فيها المماليك ضغطا متواصلا على العرب القاطنين في براري مصر عامة وفي الصعيد بوجه خاص ، كانت هناك الحملات التي ترسل إلى بلاد النوبة وإلى

^{٢٢} محمد صالح ضرار : تاريخ السودان - البحر الأحمر - صفحة ٤١ - مكتبة دار الحياة - بيروت .

بني كنز الدولة في أسوان وما جاورها ، ولم تسلم تلك المناطق من أيدي المماليك التي كانت تقبض على زمام الأمور في القاهرة وتفرض نفوذها على سائر أنحاء مصر بل وما وراء الحدود المصرية الجنوبية .